ولم تزل منهمُ لدى القتالِ ... حثالةٌ حطّت على الرمالِ
من بدر فليرحم جوى سؤالي.. ... إني بهم من أتعسِ الجهّالِ !
علامَ لم تلحقْ بباقي الركبِ ؟!

ماذا دهاهم في جنوب الوادي ! ... جنّوا فشبّوا الخلفَ في البلادِ
وأضرموها فتنةً تنادى ... بالظلمِ والتعذيبِ والفسادِ
وما لها إلا الصدى مُلبّي

وصفّدوا في غابه الأحرارا ... فسالوا قلوبهم أوارا
من أين جاءوا شرّداً حيارى ؟ ... وكيفَ جاسوا هذه الديارا ؟
يا لعنةَ اللهِ عليهم فهي !!

من أين يا هاوٍ أتيتَ الموكبا ... فرُحتَ في الخرطومِ تمشي عجبا !
وسولكَ الأقواهُ تحدو القربا ... والرايةُ الخضراء تزهو غضبا..
لقصةٍ زيّفتها الكتبِ

نسيتَ عهدَ الثلجِ والقواقعِ ... وسيرةَ القرآنِ والزوابعِ
وأمةً قامت على المنافعِ ... تريدُ شركَ الشمسِ بالمطامعِ
ولو تطيقُ لادّعت في الغيبِ !

في المسجدِ الأقصى تراءت تعلباً ... تخفي وتُعطي لليهود الحطبا
ذلّت لهم لما أرَوْها الذهبا ... وحذّروا أياتها المُنقلبا
فانقلبت تسعى لهم في الدَّرَبِ .

رباهُ ما في الشرقِ مُجرحٌ لا يَئِنْ
ولا على آلامِهِ قرَّ وطنْ
في كل وادٍ منهُ من بقى الزمنْ
نارٌ وأحرارٌ وبلوى ورِقَنْ
رباهُ زلزِل قيدهُ يا ربُّ !!

محمود حسن اسماعيل

تاريخ العمائر والفنون الإسلامية
بيت الرسول ومسجده بيثرب

للأستاذ مصطفى كامل ابراهيم

« إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر »
قرآن كريم

خرج النبي صلى الله عليه وسلم ، مهاجراً في سبيل الله إلى يثرب ، وفي رحلته هذه العاجلة المضطربة لم يحمل معه من ماله إلا ما خف وأفاد في مهجره .

ووصلت السير إلى قباء قرب يثرب ومكث بها بضع عشرة ليلة أقيمت فيها الصلوات في مواعيدها وفي قباء أقيم أول مسجد في الاسلام ، وذلك الذي نزلت فيه الآية الكريمة : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) . فلم تكن مكة إذن بالمكان الذي يستطيع النبي أن يقيم به مسجداً ، ولا أن يذهب بصحبه إلى الكعبة للصلاة بها .

وفي اليوم الخامس على رواية ، والعاشر على رواية أخرى ، قام موكب الرسول الكريم في رعاية ربه ، يحف به المهاجرون والأنصار متجهاً إلى يثرب ، وأهل يثرب تشرئب أعناقهم ليروا القادم الكريم . فرأوا رجلا يملأ العيون والقلوب والأسماع ... رأوا المثل الكامل للكمال والجلال جميعا .

وحلته راحلته حتى أناخت حيث أمرها الله أن تفيخ !

فكان مربدا[1] لغلامين يتيمين في المدينة من بني النجار ، وسأل الرسول : لمن المربد ؟ فأجاب معاذ بن عفراء : إنه لسهل وسهيل ابني عمرو ، وهما يقيمان له ويرضيهما ، ورجا محمداً أن يتخذه مسجدا . فأرسل محمد إلى ملأ من بني النجار وقال لهم : تأمنوني بحائطكم هذا ، فقالوا لا والله ، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . فلم يرض إلا أن ابتاعه بعشرة دنانير ، وأمر أن تبنى داره في هذا المكان . وأقام فترة بنائه في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وداب المسلمون من المهاجرين والأنصار على مشاركته في بنائه حتى أتموه وما كان بناء الدار يرهق أحدا ، فقد كانت من البساطة بما يتفق وتعاليم محمد .

— ١ —

وصف الدار :

ودار الرسول كدور العرب الرقيق الحال ، التي كانت ولا زالت تبنى في الأنحاء المتواضعة من شبه جزيرة العرب ، وقرى الشام ، والعراق . فالدار عبارة عن حجرات ضيقة متراصة جنبا إلى جنب ، وأمامها فناء مكشوف .

وقد بنى أولا الحجرتان المتجاورتان في الركن الجنوبي الشرقي من الفناء لعائشة وسودة ، لتكونا بمنأى عن مجلس الرسول وأصحابه في الناحية الشمالية من الفناء . ومساحة كل حجرة (٧ × ٧) أذرع يبنيت باللبن يكاد سقفها الجريد تمسه اليد . ثم أضيفت الحجرات إليهما من الناحية الشمالية كلما زاد عدد أفراد الأسرة حتى بلغت ٩ حجرات . والحجرات جميعا تكاد تتفق في المساحة ، وخلوها من مظاهر الترف — اللهم إلا بيت عائشة كما سنبين بعد — فأثاثها حصير يستعمل للنوم ، وقرب بها ماء أو عسل أو لبن معلقة على الجدران ؛ ويحجب الحجرات عن الأنظار مسجف من وبر أسود معلقة على أبوابها التي تفتح على الفناء .

والفناء مربع الشكل طول أحد أضلاعه ١٠٠ ذراعا (٥١ متراً) ، بني جدرانه — بالحجارة لارتفاع ٣ أذرع ، ثم أكمل الجدار إلى سبعة بالطوب اللبن (بالطوب النيء) وفتح فيه أربعة أبواب ، باب الرسول في الشمال ، وباب المؤمنين في الجنوب ، وباب جبريل (باب عثمان) في الشرق ، ثم باب عائشة (باب الرحمة) في الغرب ، وقد تم البناء عام ٣ هـ .

وكان يستعمل الفناء لأغراض الأسرة كالطبخ والغسل وتربية الماشية وما إليه . وليس في حكم المكان ما يمنع من أن يستخدم الرسول وزوجاته والمؤمنين الجزء الشمالي من الفناء المواجه لبيت المقدس لأغراض دينية : كإقامة الصلاة في مواعيدها ، وأن يجلس الرسول إلى الناس يحدثهم في الدين ويناقشهم ويفصل في قضاياهم . ثم أن هذا الفناء أدى غرضا إنسانيا آخر : فآوى الفقراء من المسلمين تحت صفة (سقف) أقيمت لهم في الركن الجنوبي الغربي من الفناء ، فسموا لذلك بأهل الصفة ، وأجريت عليهم الأرزاق إلى أن بنى لهم دورا .

ولقد شكى المسلمون إلى النبي حرارة الشمس ساعة الصلاة فأقام لهم في الجهة الشمالية من الفناء سقفا من سعف النخل والخصف والأذخر ، وغطى بطبقة من الطين يعتمد على قوائم وعوارض من جذوع النخل ، ودام هكذا ١٦ شهراً .

ولما مكر اليهود بالنبي ، ونزلت الآية الكريمة على رسول الله وهو قائم يصلي بالناس (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) قرأها وتوجه إلى ناحية الجنوب وتبعه المسلمون .

ونقل السقف إلى الناحية الجنوبية المواجهة للكعبة ، ونقلت الصفة إلى الركن الشمالي الغربي وسد باب المؤمنين في الجنوب

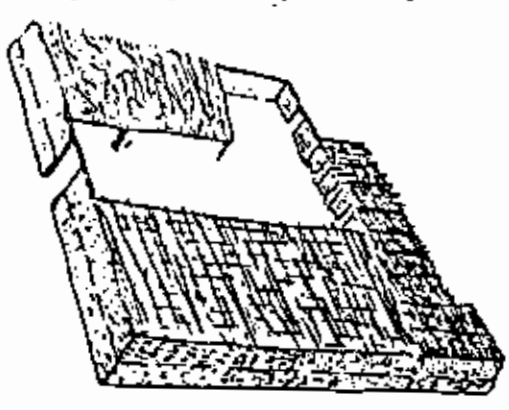

(شكل ١) رسم يبين دار الرسول ومسجده عام ١١ هـ

ولم يكن الفناء يضاء ليلا إلا ساعة الصلاة ، وذلك بأن يوقد في وسط الفناء شعلة من قش ، حتى شدت المصابيح بعد ٩ سنوات إلى جذوع النخل التي اعتمد عليها سقف رواق القبلة .

(١) المربد : مكان تجفيف التمر .

ولما التحق الرسول بالرفيق الأعلى فى ١٣ من شهر ربيع الأول عام ١١ هـ دفن فى حجرة عائشة ، وهى الحجرة التى قضى فيها أخريات أيامه .

ولما تولى أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — ترك الدار كما هى ، واتخذ كرسى الخلافة بها على نحو ما كان يفعل الرسول ، ولما توفاه الله رقد بجوار الجسد الطاهر فى حجرة عائشة ابنته وهى الأولى من ناحية الجنوب .

الزيادة فى أيام عمر :

كان لزاماً على عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أن يزيد فى مساحة المسجد ليواجه الزيادة المطردة فى عدد المسلمين والذين يفدون على مقر الخلافة من الأمصار . فأمر عام ١٧ هـ بهدم حائط الفناء — ولم تمس دور الأرامل — وزاد فى إبعاده من الشمال بقدر ٣٠ ذراعا ، ومن الجنوب بقدر ١٠ أذرع ومن الشرق بقدر ٢٠ ذراعا وهكذا أخذ الفناء شكلا مستطيلا طوله ١٤٠ ذراعا وعرضه ١٢٠ ذراعا وكان ارتفاع الحائط حول الفناء يبلغ قامة الرجل .

وزاد عمر فى عدد أبواب الفناء فأصبحت ستة : باب مروان وباب عائكة ، وباب الرسول ، وباب الفناء ، وبابان آخران فى الحائط الشمالى . وقد كان المسلمون ينفضون أيديهم من التراب بعد كل ركعة ، فكانت تحدث أصواتاً أثناء قراءة القرآن الكريم ، فأمر عمر بأن تفرش الأرض بالحصى من وادى العقيق .

ولما توفى دفن بجوار سلفيه الكريمين .

الزيادة فى أيام عثمان :

ومما يؤثر عن عثمان — رضى الله عنه — أنه كان لا يتحرج من أن يمتع النفس بشىء من نعمة الله . فأخذ يبتعد عن التقشف الذى ارتضى نفسه به عمر ، فهذب من مقام الخلافة بحيث تتناسب وجلالها واتساع رقعة الدولة التى كانت تستظل بها . وخصوصا أن عماله فى الأمصار — والأمويون على وجه الخصوص — كانوا يحيطون أنفسهم بأبهة الملك . فأمر فهدمت جدران الفناء فى سنة ٢٤ هـ ، وزاد فيه من الناحية الشمالية بقدر ٢٠ ذراعا ومن الغرب بقدر ٣٠ ذراعا ، وأصبحت ابعاد البناء ١٦٠ ذراعا × ١٥٠ ذراعا ، ولم تمس دور الأرامل ، ولم يزد شيئا من ناحية القبلة ، وبنيت الحوائط من الحجر المنحوت وغطى بسقف من خشب الساج .

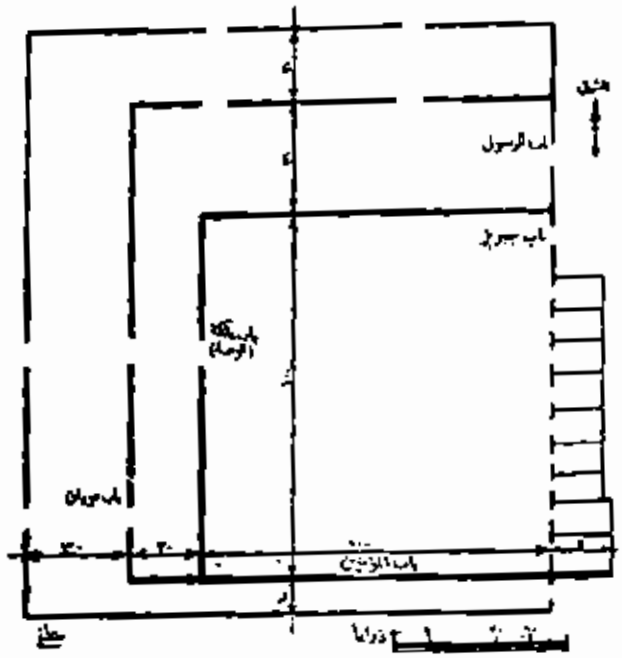

(شكل ٢) رسم تخطيطى لبيت الرسول ومسجده والزيادات التى طرأت عليه حتى عهد عثمان

ولما قتل عام ٣٥ هـ (٦٥٥ م) دفن بالشرفة المجاورة للحجرة التى دفن بها الرسول وصاحباه . وتولى الخلافة على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — ونقل مقر الخلافة إلى الكوفة فى رجب سنة ٣٦ هـ ، وبذا فقدت الدار أهميتها الرسمية ، كما فقدتها المدينة نفسها .

ولقد عز على أهل يثرب أن ينتزع منهم مقر الخلافة ، وهى التى ظلت فيهم طيلة أيام أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وأن تبرحهم العزة والتكريم التى ما برحتهم منذ أن وطئت قدما الرسول الطاهرتان أرضهم ، فتعلقت قلوبهم بمسجد الرسول لأن فيه قبره الشريف وقبر أبو بكر الصديق ، وقبر عمر الفاروق ، وقبر عثمان بن عفان ، ولأن هذا المسجد إنما يحمل ذكريات الرسول ، فجاءوه كعبتهم ، وأحاطوه بعنايتهم وتبجيلهم ، وما برحوا يقيمون فيه الصلوات ويجلسون فيه إلى فقائهم ، واتجهت قلوب المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى مقام الرسول يشدون إليه الرحال للزيارة والتبريك عملا بالحديث الشريف :

« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا » .

فلما كان عام ٥٤ هـ أقيمت ذكرى الهجرة فى العشاء لأول مرة ، وقد كانت حفلات ذكرى الحج تقام فى قباء ومن ذلك التاريخ اصطبغ هذا المسجد بالصبغة الرسمية بدلا من مسجد قباء

عمارة بناء المسجد :

ويذكر ابن سعد أن عبد الله بن يزيد شاهد عام ٩١ من الهجرة دور أرامل الرسول ، وكانت تسعة من منزل عائشة إلى دار أسماء بنت حسن ، وذكر أنه كان حاضراً أمر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة عمر بن عبد العزيز ، القاضى بهدم المنازل وضم أرضها إلى قباء المسجد ، وروى ما شاهده من حزن الناس البالغ وتحيبهم على ضياع آخر أثر من آثار بيت الرسول وتمنوا لو بقى ليرى الخلف تقشف الرسول وقناعته .

وقد أرسل الخليفة إلى المدينة المال اللازم والرخام والفسيفساء والأخشاب وثمانين من العمال الروم والقبط من سوريا ومصر ، فأزالوا البقايا القديمة من حجرات نساء النبى وبعض المنازل المجاورة وأقاموا بأشراف صالح بن كيسان المسجد الجديد من الحجر المنحوت ، وجعلوا سقفه على ٦ أعمدة فى الاتجاه الشرقى الغربى و ١٤ عموداً فى الجهة الشمالية منها ١٠ أعمدة تشرف على الصحن و ٤ أعمدة فى الرواق وبلغت مساحته ٢٠٠ فى ٢٠٠ ذراعاً .

— ٣ —

الزوائد للصورة :

وكان المؤمنون يجتمعون إلى النبى للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة ، حتى إذا اكتمل عقدهم أقيمت الصلاة على أن اشتغال الناس بأمور عيشهم قد يفوت عليهم وقت الصلاة أو يؤخرهم عن مواعيدها . . وليس أحسن من أن يؤذن فى الناس كلما حلت فيأتون رجالا من كل فج عميق ، ففكر فى البوق الذى يدعو به اليهود لصلاتهم ولكنه كرهه فأمر بناقوس كناقوس النصارى ولكنه بعد مشورة عمر وطائفة من المؤمنين على رواية ، وبأمرائه على لسان الوحى على رواية أخرى ، عدل عن الناقوس أيضاً إلى الأذان — وقال لعبد الله بن زيد ، « قم مع بلال فألقيها عليه ليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك » فارتقى بلال منزلا عالياً لامرأة من بنى النجار كان بجوار المسجد ، وصار يرسل الدعوة مع كل ريح بصوت ندى جميل :

هنالك أذّن للرحمن فاستلأمت أسماع يثرب[1] من قدسية النغم

وهكذا أصبح الأذان سنة لازمة للصلاة الجامعة ، وصار لابد للمؤذن من مكان مرتفع فى عمارة المسجد يدعو منه المصلين فلما اتخذ المسلمون المعبد الوثنى (Temenos) فى دمشق للصلاة كان له أبراج فى أركانه الأربعة فأمر معاوية باتخاذها مآذن وهذه أول المآذن .

محراب الضوء :

لم يكن لمسجد الرسول محراب يبين اتجاه القبلة ، والمحاريب بالمساجد ، إنما ظهرت بعد اتصال المسلمين بالمسيحيين والأخذ بفنونهم . والمحاريب المجوفة معروفة فى كنائس المسيحيين قبل الإسلام ، ولكن المحراب المسطح يغلب عليه الابتكار الإسلامى .

وقد كان المسلمون يتحرجون أن تبدو مساجدهم وعليها سمة وثنية ، أو يهودية أو مسيحية ، أو أن تبدو مظاهر عبادتهم متفقة ، فى قليل أو كثير ، مع مظاهر عبادات الأديان الأخرى ، فحافظوا على شخصية الإسلام وطابعه المميز سواء فى مخبره أو مظهره . وقد ظن المؤلفون الغرب إلى أن المحراب متخذ من جبلية الكنيسة فنسبوا إلى الرسول حديثا : « أن ظهور المحاريب التى تجعل الساجد تشبه الكنائس من علامات الساعة » .

وكتب السيوطى رسالة سماها « أعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب[2] » ، ويميل الآثاريون إلى الاعتقاد بأن المحراب الأول فى الإسلام صنعه العمال الروم والقبط الذين أرسلهم عبد الملك بن مروان إلى المدينة لإعادة بناء المسجد النبوى أو ذلك الذى صنعه قرة بن شريك ، عامل الوليد فى مصر عام (٨٩ — ٩٦ هـ) (٧٠٩ — ٧١٥ م) .

منبر النبى :

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إنما يخطب الناس وهو

(١) فى الأصل « مكة » من نهج البردة لشوقى بك .
(٢) مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع

قائم مستند إلى أحد جذوع النخل التي تحمل سقف المسجد ؛ إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلا فصُنع له منبر خشبي من ثلاث درجات ووضع في صدر حائط القبلة ، وكان النبي وقت الخطبة يجلس على الثالثة العليا ويضع أرجله على الثانية ، وكان أبو بكر يجلس على الثانية ويضع أرجله على الأولى ؛ إشعاراً للناس بهيبة الراحل العظيم ، وإقراراً في نفوسهم بأنه هو خليفته ومهما بلغ به التعظيم والتكريم فلن يبلغ مبلغه . ولقد يظهر أن للرجل فكرة دينية تخفي تحت هذا التصرف ... فقد كانت حركة الردة على أشدها ، ومدعو النبوة في كل واد يهيمون ، يؤلبون الناس على الإسلام ، فخشي أن يتطلع الناس إليه على أنه صورة ثانية من الرسول فيطالبونه بما لا يستطيعه من وحي أو حديث ، فيضطرب الأمر وتفشو الفتنة ، أو لعل له هدفاً سياسياً فالقوم يعلمون أن الرسول لا ينطق عن الهوى ، وأنه على خلق عظيم ، فأراد الصديق أن يقر في نفوسهم بأنه لا يتلقى وحياً ، وأن الخطأ جائز عليه فلا يمكن أن يقاس برسول الله على كل حال .

هذا التواضع وهذه السياسة قد ورثها عمر بن الخطاب فخطب الناس وهو جالس على العتبة الأولى للمنبر وجعل رجليه على الأرض إلا أن عثمان بن عفان لم يجد ما يدعوه إلى الجلوس مكان عمر ، ولا مكان أبو بكر ، وليس لديه ما يمنع من جلوسه مكان النبي نفسه . ولا شك بأن إغفال سنة سلفية وصعوده الدرجات إلى مكان النبي أمام الناس قد هزت الناس هزات نفسية عنيفة ، لها معزاها في سير الحوادث أيام عثمان .

ومنبر النبي مكرم بحديثه الشريف « ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة » .

والمنبر إنما هو كرسي مرتفع أدخل في المسجد للنبي ليكفيه عناء الوقوف مدة إلقاء الخطبة . وقد كان للمنبر معروفاً في المعابد المسيحية ، وكان في كنائس الروم والقبط يجلس عليه القساوسة لإلقاء الوعظ حتى استغني عنه بالمذبح . ولقد هذب الإسلام من هيئته على مر العصور وأضفى عليه من روحه بما جعل له مغزى وطابعا إسلامياً مميزاً وعالجه الفنانون حتى أخرجوه تحفة لها مقامها الكريم بين منتجات الفن الرفيع .

— ٣ —

لم تكن بتركيا فارقة في البداوة حتى لا يظهر بها أثر من الفن أو الصنعة فوجود اليهود بها — وهم أهل تجارة وحيلة في جلب المال — مما يرجح وجود الفنون بها . وقد كان في حجرة عائشة — رضي الله عنها — بعض التماثيل مما يتلهى به فتيات العرب وستور محلاة بالصور يفسره حديث السيدة عائشة قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت سهوة لي بقرام (١) فيه تماثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلوّن وجهه ، وقال : يا عائشة ! أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله ، قالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين » . وجاء في ربيع الأبرار للزمخشري في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

« قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك وفي سهوتي ستر ، فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات (٢) لي فقال : ما هذا ؟ قلت : بناتي ، ورأى بينهن فرساً له جناحان ، قال : فرس له جناحان ؟ قلت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ فضحك حتى بدت نواجذه » .

وبعد ، فهذا قبس من نور ألقيناه على المرحلة المبكرة من حياة هذا الفنان الكريم وسنحاول في مقال تال أن نجلو صفحة أخرى من صفحاته الزاخرة الزاهرة .

القاهرة . مصطفى عامل إبراهيم

(١) السهوة : الطاق . والقرام الستر .
(٢) البنات : التماثيل الصغار يلعب بها .

مراجع البحث نجملها في يلي :

القرآن الكريم وكتب السيرة الشريفة .
Eanig NusliM Archileerure لكريزل طبقات ابن سعد .
تاريخ الأمم والملوك لطبري
مسالك الأبصار للعمري
الفن الإسلامي في مصر للدكتور زكي محمد حسن
التصوير عند العرب لتيمور باشا والدكتور زكي محمد حسن
خطط المقريزي
حياة محمد للدكتور هيكل باشا

فجر وضباب

رواية الأستاذ ابراهيم الوائلي

يظهر قريباً